العرب
الأحد 2021/05/09
السنة 43 العدد 12055

الوصايا العشر للمثقف العربي

هيثم الزبيدي
كاتب عراقي

عودة للمثقف اليومي العربي. هو في وضع لا يحسد عليه. لم يقدّم مشروعا فكريا خاصا. المشروع الفكري – الثقافي الغربي المسقط عربيا تحرك بعيدا عن الأساسيات وصار مشاريع فكرية مفصلة على مجتمعات تزداد تعقيدا.

ما عاد بوسعنا الاستعارة. المشروع الفكري الغربي صار نقيضا لواقعنا العربي. ضع صراع الأيديولوجيات جانبا لأن أيّ توافق بين الليبرالية الغربية والانغلاق الإسلاموي في منطقتنا مستحيل. السياسيون الغربيون منافقون أو متأقلمون. يقبلون الإسلاموية على علاّتها لأسباب أمنية وسياسية. المثقف الغربي ليس بصدد قبول مثل هذه المساومات.

الإعلام مفيد للشهرة ولكنه في النهاية مشروع فضيحة فكرية للسذج من مدّعي المعرفة والثقافة والفهم والفكر

المثقف اليومي العربي اليوم مجموعة تناقضات في شخصية واحدة. تستطيع أن تجد مثقفين عربا تنقلوا من اليسار إلى القومية إلى الإسلاموية وصولا إلى الشعبوية. هؤلاء كانوا نسخا قديمة من التأثر بالتيارات الجارية في حينها. المثقف الحالي يجمع من هذه الأفكار سوية وأكثر من هذا. يتغير اتجاه الريح، ولكنه لا يغير اتجاهه، بل يزيد على تناقضاته اتجاهات جديدة. يرى المجتمعات تعيد تشكيل نفسها، فيقوم بتقديم التناقضات سوية في إطار يعتبره فكريا.

الميديا الحديثة تساعده على هذا. مفكرنا يبرز إعلاميا حتى قبل أن يبرز فكريا. مثقفنا سلعة يومية تتداولها الفضائيات، بعض الأحيان أكثر من فضائية في اليوم الواحد. من لديه هواية اللعب بريموت كونترول التلفزيون يعرف هذا. نفس الوجه الفكري يتنقل، ويعيد تشكيل أفكاره ومفرداته بحسب طبيعة القناة الفضائية. اللغو كثير وسيضيع ما يقوله.

لا يوجد مشروع فكري أو ثقافي له مدوّن في كتاب أو مكتوب في موقع ليحاسب عليه أو أن تطاله أقلام النقاد. المفكر أو المثقف أصبح مشهدا تلفزيونيا.

الإعلام مفيد للشهرة. ولكنه في النهاية مشروع فضيحة فكرية للسذج من مدّعي المعرفة والثقافة والفهم والفكر. الشبكات الاجتماعية مليئة بالمشاهد من برامج يقول فيها مفكرنا الشيء وضده خلال أيام أو أشهر، وإذا كان محظوظا خلال سنوات.

من حق المرء أن يغير أفكاره. لا يوجد ما يجبر المثقف على الالتزام بفكرة معينة طوال عمره. ولكن من حق الناس على المثقف أو المفكر أن يثبت على رأيه في ذلك اليوم أو الأسبوع أو المرحلة. هو ليس حلوى بنكهات وألوان مختلفة.

الانفتاح الفكري ليس تقلبا. هذا ما نحن بحاجة إليه. أن نستطيع أن نفهم التغيرات العميقة التي تجتاح العالم، وتجتاح عالمنا العربي تحديدا، كي نستطيع أن نسهم فيها فكريا وثقافيا. من دون هذا الانفتاح سيكون من الصعب النهوض بمشروع فكري أو ثقافي عربي. والانفتاح هنا بالتأكيد ليس على الطريقة القديمة من الإسقاطات الفكرية والثقافية العربية من/عن النتاج الفكري الغربي. لا نريد أن نقول السرقات الفكرية فهي أيضا كثيرة.

مشكلة هذا التحدي عويصة. إذا استثنينا المثقف أو المفكر اليومي المتنقل بين الفضائيات فهو لا يصلح لهذه المهمة، فإن قولبة الفكر في إطار ثابت مهمة صعبة. وكي نتأقلم مع التغيرات فإن الانفتاح يخرجنا من مناطق الراحة التقليدية.

يريد البعض أن يضع المفكر ضمن قالب وصايا عشر تحسم كل شيء. علينا أن نتخيل كيف أن المشروع الفكري – لو حدث – سيولد خديجا ويبقى خديجا. الوصايا تضع سقفا لما يمكن أن نصل إليه حتى من قبل أن نبدأ. لكن العقلية السائدة، سواء الفكرية أو الاجتماعية، تريد هذه القولبة وهذه الأسقف.

مثل هذه التقييدات الساذجة هي ما يؤدي إلى التراجع الفكري وخسران الأرضية لصالح التيارات الفكرية الدينية أو المتعصبة. وصايا عشر قومية ووصايا عشر يسارية ووصايا عشر شعبوية ووصايا عشر قومية – يسارية ووصايا عشر قومية – يسارية – شعبوية – دينية، والحبل على الجرار.

صحيح أن المفردات المستخدمة على لسان المفكرين والمثقفين كثيرة ومتعددة، لكنها لا تخفي الطابع النمطي والتزمت لما يصفونه بالفكر. وما يزيد حزن المتابعين والمتأملين خيرا في ثورة فكرية أو ثقافية قادمة، أن التزمت صار وصفة، حتى في حال وصايا التناقضات. يأتيك من ينظر بيسار ديني شعبوي. بماذا تردّ عليه؟ تسكت وتمضي.

المثقف والمفكر لا يتطوران لأسباب "تسويقية" بل يجب أن تكون هذه الأسباب حقيقية. هناك الكثير من الأدوات المعرفية المتاحة مما تؤهل لقيام ثورة فكرية وثقافية في مجتمعاتنا تبني على الأسباب الحقيقية. لا أدري لماذا نعجز مرات ومرات عن التقاطها. ربما لم يحن الوقت بعد.

المثقف والمفكر لا يتطوران (لوحة للفنان بطرس المعري)

الوجه الوحشي يخفيه المثقفون والفلاسفة

عبدالعالي زواغي
كاتب جزائري

على الرغم من أن المفكرين والفلاسفة والمثقفين، الغربيين تحديدا، برعوا في إنتاج مقولات كبرى ونصوص عظمية تملأ اليوم رفوف المكتبات وأسواق الكتب، ويجري تدوير أسماء أصحابها في الملتقيات العلمية والاستشهاد بها في ما بين دفات المتون البحثية عبر أطراف العالم الأربعة، حتى ذهب بعض المتحمسين لإرث هؤلاء الفكري والمعرفي إلى تعظيمهم وسكب هالة القداسة عليهم من قدح المحبة العلمية، إلا أن الغرفة الخلفية لحياة هؤلاء العظماء الذين تربعوا على عرش الفكر والمعرفة لم تكن بتلك النظارة العلمية التي اشتهروا بها وعرفهم بها الناس.

كثير من المفكرين كانوا خلافا للصورة المقدسة عنهم، حين يلقون عنهم رداء الوقار الفكري والثقافي وينتكسون إلى ذوات عارية من الأخلاق منغمسة في الشهوات والملذات دون وازع أو ضابط، كأنها وحوش بشرية أطلقت من عقالها، فكشفوا بممارساتهم المشينة عن شخصيات مضطربة أو مزاجية أو فاسدة، لذلك من نافلة القول أن نشير هنا إلى أن حياة العقل لا تقود – بالضرورة – إلى حياة عقلانية، فقد يكون المفكر أو الفيلسوف أو المثقف إجمالا، يعيش في سرّه حياة مناقضة للأفكار والأطاريح التي نذر نفسه للترويج لها والدفاع عنها في العلن.

وهنا أجدني ألوك عبارة قالها الفيلسوف الفرنسي لوك فيري للتعبير عن استيائه من سلوكات بعض المثقفين الجانحة والمتناقضة "إن الثقافة لا تمنع أحدا من أن يكون سافلا"، وهذا طبعا في غياب الضمير أو الأخلاق أو الدين، فالمعرفة على قولة جون جاك روسو لا تولد الأخلاق والأفراد المثقفون ليسوا بالضرورة صالحين، لأن هؤلاء في نهاية المطاف مخلوقات بشرية، قد يخضعون في سلوكاتهم لإملاءات ونوازع النفس دون مقاومة.

ولا يمكن أن نقرن التقدم الحضاري والفكري الذي يعرفه الغرب بالرقي الأخلاقي للأفراد الذين ينعمون بثمار ذلك، حيث ذهب لوك فيري إلى أن المزاعم التي ترى بأن تقدم الحضارة وتقدم الأخلاق رديفان، هو أكبر وهم ورثه الغرب عن عصر الأنوار، فالتربية الأخلاقية لا صلة لها بالتكوين الفكري ولا بالثقافة.

نشرت صحيفة "صنداي تايمز" بتاريخ الـ28 من مارس 2021، تقريرا كان بمثابة حجر ألقي به في بركة راكدة، جاء فيه أن الفيلسوف الأكثر شهرة في القرن العشرين ميشيل فوكو، الذي يوصف في فرنسا عادة بالملك الفيلسوف (www.rattibha.com)، قد اعتدى على أطفال من العرب يبلغون أقل من 13 سنة في تونس أثناء إقامته بها أواخر الستينات من القرن الماضي، حسب معلومات أدلى بها مثقف وصديق للفيلسوف يدعى غاي سورمان، كان قد شهد تلك الأفعال الشنيعة التي كشفت عن شخصية فوكو البيدوفيلية.

المفكر أو الفيلسوف أو المثقف إجمالا قد يعيش في سرّه حياة مناقضة للأفكار والأطاريح التي نذر نفسه لها

وبغض النظر عن التساؤلات حول هذا الصمت الطويل الذي التزم به سورمان، والذي يعد في حد ذاته خطيئة واستفاقة ضمير متأخرة، إلا أن هذه القضية ستترك ندوبا على مكانة فوكو الفكرية وسمعته، مع أنها ليست الرذيلة الأولى في سجله الخاص البعيد والمتناقض عن عالم الأفكار الذي بناه وقطف مجدا تليدا بين ثنايا، فصاحب "أركيولوجيا المعرفة" و"المراقبة والمعاقبة" و"تأويل الذات" و"تاريخ الجنسانية" وغيرها من الكتب الكثيرة التي ألفها وتلقى إقبالا كبيرا حتى وقتنا الراهن، له سيرة مضادة تماما للرائج عنه.

فقد كان في الأقاصي البعيدة عن الأنظار شخصا ذا سلوك منحرف من الناحية الأخلاقية، حتى أنه كان يملك منظارا في بيته يستخدمه في التجسس من السطح على بيوت الناس ومراقبتهم، كما بات معروفا أن وفاته سنة 1984 كانت بسبب صادم وهو إصابته بمرض الإيدز، وهي الحقيقة التي خلفت زوبعة من الجدال والظنون التي أثيرت بشأن معرفته بمرضه وتعريضه حياة آخرين للخطر عمدا، ما يدفعنا إلى القول بأن من يفكر بشكل عظيم قد يخطئ بشكل عظيم أيضا.

والحديث حول الانحرافات الخطيرة التي طبعت سلوك ميشال فوكو يستتبعه نفس الحديث عن مفكرين ومثقفين وفلاسفة من مشارب شتى، اجترحوا سقطات أخلاقية لا تليق بمكانتهم المعرفية وصيتهم الفكري وحضورهم الطاغي في عوالم الفكر والفلسفة والثقافة والأكاديميا، فكما تستطيع المعرفة والفلسفة أن تنير عقل الإنسان تستطيع أيضا أن تضلله وتخدعه.

فهذه سيمون دوبفوار الفيلسوفة الفرنسية الوجودية والمنظرة الاجتماعية وإحدى رائدات النسوية كانت تُقدم تلميذاتها وصديقاتها للفيلسوف الوجودي الشهير جون بول سارتر كهدايا أو عطايا بعد أن تقضي منهن وطرا، أما الفيلسوف ذائع الصيت نيتشه الذي يحتل بحثه التاريخي في تطور النظم والأحكام الأخلاقية الحديثة مكانة مركزية في فلسفته، خاصة في كتابيه "ما وراء الخير والشر" و"جينالوجيا الأخلاق"، فإنه تحوم حوله شكوك حقيقية حول علاقاته الجنسية، كما يُعتقد بأنه التقط مرض "السفلس" من دور الدعارة التي كان يرتادها.

أما أرثر شوبنهاور المعروف بفلسفته التشاؤمية والذي يرى أن الوجود يقوم على أساس من الحكمة والخبرة والغائية، وأن كل شيء في الوجود دليل صادق على إدارة الفاعل وقدرته وحكمته وخبرته وإتقانه، فقد عاش معزولا دون أسرة، وحتى من دون زوجة أو عشيقة، وكانت علاقته سيئة مع والدته، بشكل خاص، إلى درجة أنه لم يرها خلال السنوات العشرين الأخيرة من حياتها.

في حين أن الفيلسوف وعالم المنطق والرياضي والمؤرخ والناقد الاجتماعي البريطاني بيرتراند راسل، فقد اشتهر بقسوته تجاه زوجته أليس، وكان يتركها تئن من وطأة ألم ورم الثدي في غرفة النوم، وينزوي في مكتبه في الغرفة المجاورة، بينما لودفيغ فتغنشتاين، الذي يعتبر أبرز فلاسفة اللغة والمنطق والعقل، فقد اشتهر بالغطرسة وتقلب المزاج، وقد لجأ إلى العنف القاسي حين كان معلما في إحدى المناطق النائية بالنمسا؛ حيث سحب فتاة من شعرها إلى درجة اقتلاع خصلات رأسها لفشلها في فهم قاعدة رياضية، وضرب أخرى بقوة إلى درجة أنها نزفت من أذنيها.

هذه نماذج قليلة، أو غيض من فيض، عن الوجه الآخر الذي عاش به فلاسفة ومفكرون، بعيدا عن المثل والقيم والأفكار التي كانوا يدعون إليها ويدافعون عنها، فليس هناك من شخص معصوم، وليس الفلاسفة حكماء ولا قدّيسين يعيشون حياة الفضيلة التي لا تشوبها شائبة، وهم لم يدّعوا ذلك، لكننا نتوقع منهم سلوكا أكثر نبلا وحكمة.

وليعترف المثقفون بأنهم ليسوا قدس الأقداس ولا رسل الهادية والحقيقة، ولم يعودوا ملح الأرض، كما يعترف أحد أبرز المثقفين في هذا العصر ريجيس دوبري لذلك لا يجب أن ننخدع بالخطاب كما يرى علي حرب، فهو يسدّد المعنى من جهة لكي يخرقه من جهة أخرى، ويحارب أشياء على صعيد، لكي يستعيدها على صعيد آخر.

لكن مع كل هذا الجدل الدائر حول سلوكات بعض "النخبة الفكرية" فمن الواجب علينا التشديد على أن هذه الجرائم الأخلاقية المنبوذة والتفاصيل الحياتية الخاصة لا تنتقص تماما من قيمة ما خلّفوه من إرث معرفي ثقيل وأفكار كبيرة وغزيرة في الحقول التي نذروا أنفسهم للاشتغال فيها، وإثرائهم للفكر الإنساني والحياة البشرية بشكل رائع جدا لا يمكن تجاهله أو تلافيه بعدم العمل في ضوئه.

ص10 وص11 تنشران كاملتين على الموقع الإلكتروني بالاتفاق مع مجلة «الجديد» الثقافية اللندنية

فوكو المتلصص متهم بالاعتداء على الأطفال